**الدكتورة نادية شرادي**

**قسم علم النفس و علوم التربية والأرطفونيا**

**جامعة سعد دحلب – البليدة**

***عنوان ال*مداخلة : الممارسة النفسانية في ظل التغير الاجتماعي – انتشار الصدمة النفسية –**

**ملخص:**

في ظل التغيرات الاجتماعية وما يواكبها من حركية متجددة وديناميكية مستمرة على مختلف الأصعدة والأنساق الاجتماعية،فان مهنة الأخصائي النفساني بدورها تتأثر فأكتر،خاصة وأن التغير السريعة التي يخضع لها المجتمع الجزائري وما يصاحبها من هزات اجتماعية اثر لا محالة في نفسيات الأفراد و المجتمع .

ومن ثمة، فان مهنة الأخصائي النفساني تفرض وجودها بشكل يستدعي التساؤل والتحليل، فالحاجة إلى وجوده في المجتمعات-خاصة المجتمعات التي تعيش تغير سريع وغير متكيف – صارت ضرورة تواكب هذه التغيرات.

وعلى هدا الأساس، نسعى في هذه المداخلة إلى تحليل مهام الأخصائي النفساني وذلك من خلال تعزيز مكانته كممارس ومتعامل بشكل مباشر مع المشكلات النفسية الاجتماعية.

على ضوء تجربتنا في مجال المساعدة النفسية التي تفوق خمسة عشرة سنة ،

لاحظنا أن نوع المشاكل التي يعاني منها المفحوصين، تختلف من شخص إلى آخر، ومن فترة إلى

أخرى ، و ذلك تبعا للظروف الاجتماعية و التأثر بالمحيط الاجتماعي وما يطرأ عليه من تغيرات،لاسيما تلك التي عرفها مجتمعنا في السنوات الأخيرة .، إذ لا يخفى علينا أن

ما عاشه مجتمعنا الجزائري في فترة الإرهاب ، أدى إلى صدمات نفسية شديدة لدى العديد من الأشخاص، سواء كانوا أطفالا أم مراهقين أم راشدين ، لدرجة أننا نفكر أن الحاجة إلى الأخصائي النفساني في الخمسين سنة القادمة ضرورة ملحة ، إذ أن حتى بعض الأشخاص الذين كانوا شهود عيان لظاهرة العدوانية ( قتل على مرأى منهم شخص عزيز أو غير ذلك ) ، لم يظهر عليهم أي اضطراب ، لكن سكونهم هذا قد يكون مؤقتا ، فقد ينفجر ما كان كامنا و يؤدي إلى صراعات حادة ، تعرقل تكيفهم الداخلي و الخارجي ، في ما بعد أي بعد مضي وقت محدد ، قد يكون سنوات ( آثار صدمة بعدية ).

ما يقال عن ظاهرة الإرهاب يقال أيضا عن الظواهر الأخرى التي تعرض لها مجتمعنا من فيضانات و زلزال.طبعا دوما الأشخاص الأكثر هشاشة هم الذين يفقدون توازنهم ، فتظهر عليهم أعراض مرضية، أما الأقل هشاشة فقد يتعرضون لأزمات نفسية بعد مضي وقت معين (صدمة بعدية) . من أجل ذلك لابد أن يأخذ الأخصائي النفساني بعين الاعتبار ما يحدث خارج الفحص النفسي، و العمل في إطار شبكة المساعدة المتعددة الاختصاصات.كما أنه من الضروري إدماج أكثر العائلة- باعتبارها سند نفسي هام - و المحيط، إذ لا يأخذ بعين الاعتبار فقط الداخل ، إنما مساعدة الفرد في ظل المحيط و على ضوء ما يطرأ عليه من تغيرات .

نحاول من خلال مداخلتنا بلورة كل ما سبق ، بالإضافة إلى تسليط الأضواء على الاختبارات

الاسقاطية باعتبارها تساهم في فهم نوعية التقمصات لدى الشخص، نظرا لتكونها

من مادة تترجم الواقع الداخلي ، و الذي يضفيه الشخص على وضعيات معينة يوضع أمامها ،

فيحاول وفقا لنظامه و سيره النفسي مواجهة الواقعين: الداخلي و الخارجي، مبلورا بذلك آليات

دفاعية يعبر عنها بلغة حافلة بالبصمات و المميزات الأساسية لمكنونات واقعه النفسي العميق.

نتناول إذن في مداخلتنا هذه:مهام الأخصائي النفساني كممارس و متعامل بشكل مباشر مع

المشكلات النفسية الاجتماعية، لمساعدة المفحوص باعتباره المرآة التي يعي من خلالها هذا الأخير

العراقيل التي غالبا ما تكون نابعة من أعماق شخصيته متأثرا بالمنبهات الخارجية الاجتماعية و

التي تؤدي إلى فقدان التكيف مع الوقع الداخلي و الخارجي . ، و من تم تظهر مهمة الأخصائي النفساني عند مساعدته للمفحوص ، في تحديد العرض ضمن وحدة الشخصية ككل،بمعنى تحديد دلالته و وظيفته ضمن نسق تفاعلي بما يحمله من مضامين و محتويات داخلية و خارجية .، و بالأخص إبراز كيفية إدماج و إدخال العالم الخارجي و ما يكتنفه من تناقضات، وفقا لصدى نفسي داخلي و توظيف عقلي معين.

**مفاتيح أساسية للمداخلة :** المساعدة النفسية ، التوظيف النفسي ، الصدمة النفسية ، الاختبارات الاسقاطية.

**مقدمة:**

يسعى الأخصائي النفساني في ظل الالتماس العيادي(Approche clinique)

إلى الوصولإلى داخلية الفرد،و فهم هذه الداخلية و من ثم الوصول إلى إعطاء معنى لكل ذلك الفهم ، متبعا منهجا عياديا بخطوات محددة ليصل من خلالها إلى فهم شخصية مفحوصيه.

تمتاز الدراسة العيادية بصفة منهجية، بكونها تهدف إلى الكشف عن تصرفات و مواقف و أوضاع كائن إنساني معين اتجاه مشكلة، و البحث عن معنى لهذا الموقف و أساسه و الإجراءات التي تهدف إلى حل هذا الصراع.

يستخدم الأخصائي النفساني في إطار المنهج العيادي ، دراسة الحالة ، أي حالة فريدة من نوعها ، فردية بعينها ، دراسة عميقة بقصد فهمها و علاجها.

يقوم المنهج العيادي على ملاحظة الفرد أو الأفراد و معرفة ظروف حياتهم و معاناتهم ، بحيث يتيسر تأويل كل حادث في ضوء الوقائع الأخرى، نظرا لكونها تشمل كلا ديناميا ،لاسيما و أن الواقع الداخلي يتأثر بالواقع الخارجي الموضوعي.لهذا فان عمليات التغير السريعة التي تخضع لها المجتمعات بصفة عامة، و المجتمع الجزائري بصفة خاصة، و ما يصاحبها من هزات اجتماعية عنيفة ،أثر لا محالة في نفسيات الأفراد.، لهذا فهم بحاجة ماسة إلى المساعدة النفسية.

**1- مهام الأخصائي النفساني:**

تجدر الإشارة إلى أنه لا يمكن النظر إلى الشخصية على أنها تنظيم ثابت للنواحي النفسية و الجسدية التي تحدد سلوك الفرد و نموذج حياته فقط، بل هي نتاج تفاعل دينامي للإمكانيات الداخلية مع العلاقات الإنسانية، في إطار اجتماعي- ثقافي معين.

لذلك لابد من النظر إلى الشخصية على أنها نتاج تفاعل دينامي ما بين القوى الذاتية من جهة، و بين القوى الذاتية و الموضوعية من جهة أخرى.

لهذا يحاول الأخصائي النفساني مساعدة مفحوصيه آخذا بعين الاعتبار هذا التفاعل ما بين الداخل و الخارج ، ليحدد موضع الخلل في الصلة ما بين الواقع النفسي و الواقع الاجتماعي، و الذي منه انبثق الصراع الذي أدى إلى اختلال توازن الجهاز النفسي.، و من تم انعدام التكيف مع كل من الواقعين: الداخلي و الخارجي.

باعتبار الشخصية كل متكامل أو كل يعمل في نشاط، فانه لا يمكن فهم الأعراض إلا بالرجوع إلى الوحدة في صلتها بالعالم و المجتمع الذي يحتضن هذه الشخصية، بكل ما يحمله من معايير و قيم و ضوابط اجتماعية.، فالنظرة العيادية لا تقتصر على جانب

معين من الشخصية ، إنما تأخذ بعين الاعتبار كافة الاستجابات التي تصدر عن الشخص من حيث هو كائن دينا مي ، و من تم تظهر مهمة الأخصائي النفساني عند مساعدته للمفحوص ، في تحديد العرض ضمن وحدة الشخصية ككل،بمعنى تحديد دلالته و وظيفته ضمن نسق تفاعلي بما يحمله من مضامين و محتويات داخلية و خارجية .، و بالأخص إبراز كيفية إدماج

و إدخال العالم الخارجي و ما يكتنفه من تناقضات، وفقا لصدى نفسي داخلي و توظيف عقلي معين.

يستجيب الفرد للمواقف التي قد يمر بها على ضوء تاريخ حياته و اتجاهاته.،يساعده الأخصائي النفساني من حيث هو وحدة كلية حالية و زمنية في موقف معين.

إن الفرد حالة خاصة و حامل مشاكل خاصة به، و لابد من التعرف على ميوله، اتجاهاته و سماته المميزة ( النفسية، الجسدية، الفكرية ) التي تجعل منه هذا الشخص دون سواه ( أي شخص معين وليس آخر).، لهذا مساعدة الفرد تحتاج إلى التعمق في حياته و حالته المعاشة من قبل، من أجل ذلك لابد أن يكون لدى الأخصائي النفساني حدس و تفاعل مع الغير لكي يتعرف على الجو العاطفي و الاجتماعي الذي أثر في الوضعية النفسية للفرد .كل ذلك بغرض إعادة بناء التاريخ الشخصي و التاريخ مع الغير الذي " بني " بشكل غير محكم منذ الطفولة .

إذن يقوم الأخصائي النفساني بدراسة عميقة للحالات الفردية ، و نعرف أن دراسة الحالة تدور حول الكائن الإنساني في تفرده ، يقيم فيها كل المعلومات و النتائج التي يتحصل عليها عن طريق الفرد و المقابلة و الملاحظة بالإضافة إلى تطبيقه للاختبارات النفسية، هادفا من وراء دراسة الحالة إلى الإحاطة الشاملة بتفاصيل هذه الأخيرة، من المنظور الدينامي و الترابطي العلائقي التاريخي ، و بالتالي وضع تشخيص مع التنبؤ بتطور الحالة. تساهم دراسة الحالة بدور كبير في التعرف على الجهاز النفسي للفرد ، و كيف يوظف هذا الجهاز اتجاه المشاكل التي يجابهها في محيطه و مجتمعه ، و كيف يعمل الأنا على إيجاد التوازن بين أركان و أنظمة الجهاز النفسي ، ما هي الميكانيزمات الدفاعية التي يستعملها لهذا الغرض ، و كيف يستخدمها هل باستنفاذ الطاقة، يجهد نفسه أم لا؟

يتبين أنه في المنهجية العيادية ، ليس مهم تعداد الأعراض ( كما قد يعتقد البعض) ، بل الحصول على صورة دينامية لشخصية المفحوص ، و التعرف أساسا على كيفية

توظيف الجهاز النفسي اتجاه المشاكل،لأننا في المنهجية العيادية نأخذ بعين الاعتبار فقط الشخص الموجود أمامنا، لنعرف كيف يتصرف في مختلف المواقف ، كيف يستجيب بناءا على واقعه الداخلي للواقع الخارجي بما يحمله من تناقضات و مشاكل و تغير سريع .

ليصل إلى ذلك ، لابد أن يلاحظ الأخصائي النفساني كل السلوكات اللفظية و غير اللفظية للمفحوص ، دون أن يشعره بأنه يدقق في ملاحظته ، و إلا غير سلوكه.

كما على الفاحص أن يحرص على أن تجمعه بالمفحوص، علاقة ثنائية ذات تحويل ايجابي ،مما يساعد على تطور و السير الجيد للمساعدة النفسية.

## 2 ـ نوع و طبيعة المعاناة في المساعدة النفسية:

تكمن مهام الأخصائي النفساني في استجاباته لطلبات المفحوصين لمساعدتهم لتجاوز الصراعات التي يعانون منها ، و حل المشاكل التي يواجهونها في علاقاتهم التفاعلية . يمكن أن يتعلق الأمر بمشاكل علائقية معينة كالتفاعل السلبي بين الطفل أو المراهق و والديه أو أحدهما ، عدم التكيف في المدرسة أو العمل ، و العلاقات الاجتماعية عامة، أو عند التعرض لقلق موقفي نتيجة لوضعية أو حدث خطير كصدمة ، مثل فقدان شخص عزيز( أحد الوالدين مثلا) ، كما حدث في الجزائر ز الإرهاب ، كارثة باب الواد( الفيضانات )، الزلزال الذي تعرضت له ولاية الجزائر . كل هذا سبب صدمة نفسية، تستدعي تدخلا من قبل الأخصائي النفساني.

إذن في كل الحلات المطلوب من المفحوص ، مساعدته للحد من الألم وإيقاف النزيف النفسي الذي أدى إلى اختلال في النظام الداخلي لشخصيته إلى جانب تحسين علاقاته التفاعلية .

يتم بطبيعة الحال كل ذلك، في إطار الفحص النفسي الذي يتطلب إجراء

المقابلات،تطبيق الاختبارات بالإضافة إلى الاعتماد على الملاحظات الدقيقة كأننا نستعمل" سكا نير" نفسي للتعرف و فهم نظام الشخصية من الداخل، و كيف تتموقع بالنسبة للخارج في استجاباتها و ردود أفعالها ، حتى نتمكن من تقديم مساعدة نفسية تتلاءم و التنظيم العقلي للشخصية- الذي هو سيرورة دينامية، تخضع لمبادئ أساسية،

تعمل على تحقيق التوافق والتوازن الداخلي، بعد أن تراعي التفاعل مع الواقع الاجتماعي - .

نشير إلى أنه على ضوء تجربتنا في مجال المساعدة النفسية ، التي تفوق العشر سنوات، لاحظنا أن نوع المشاكل تختلف من شخص إلى آخر ، و من فترة زمنية إلى أخرى ، و ذلك تبعا للظروف الاجتماعية و التأثر بالمحيط الاجتماعي وما يطرأ عليه من تغيرات لاسيما تلك التي عرفها مجتمعنا في السنوات الأخيرة .، إذ لا يخفى علينا أن ما عاشه مجتمعنا الجزائري في فترة الإرهاب ، أدى إلى صدمات نفسية شديدة لدى العديد من الأشخاص، سواء كانوا أطفالا أم مراهقين أم راشدين ، لدرجة أننا نفكر أن الحاجة إلى الأخصائي النفساني في الخمسين سنة القادمة ضرورة ملحة ، إذ أن حتى بعض الأشخاص الذين كانوا شهود عيان لظاهرة العدوانية ( قتل على مرأى منهم شخص عزيز أو غير ذلك ) ،لم يظهر عليهم أي اضطراب ،لكن سكونهم هذا قد يكون مؤقتا ، فقد ينفجر ما كان كامنا و يؤدي إلى، صراعات حادة ، تعرقل تكيفهم الداخلي و الخارجي ،في ما بعد أي بعد مضي وقت محدد ،قد يكون سنوات ( آثار صدمة بعدية ).

ما يقال عن ظاهرة الإرهاب يقال أيضا عن الظواهر الأخرى التي تعرض لها مجتمعنا من فيضانات و زلزال.طبعا دوما الأشخاص الأكثر هشاشة هم الذين يفقدون توازنهم ، فتظهر عليهم أعراض مرضية، أما الأقل هشاشة فقد يتعرضون لأزمات نفسية بعد مضي وقت معين (صدمة بعدية) .

بالإضافة إلى ما سلف، لمسنا من خلال تجربتنا في الممارسة النفسانية، أن بعض الأولياء - نتيجة للتغير السريع الذي يعرفه مجتمعنا - لم يعودوا كما في السابق يشكلون سلطة مرجعية لأبنائهم ، و من ثم نجدة هؤلاء الأبناء يتركون لأهوائهم ، دون رقابة تكون بمثابة ضابط اجتماعي لسلوكاتهم.

ينجم عن فقدان هده الرقابة مشاكل عديدة منها عدم استثمار المدرسة و الدراسة ، مشاكل علائقية تفاعلية مع الجنس الآخر لاسيما عند المراهقين ، مشاكل في العمل لاحقا.

بالنسبة للمشاكل الدراسية: لاحظنا أن استثمار الدراسة حاليا من قبل التلاميذ، ليس كما كان في السابق، فهناك تغير قد يرجع إلى طغيان الحياة المادية على المجتمع و التفاعل الاجتماعي عامة.، و من جهة أخرى إلى سيطرة الطفل الموجود على حيز اللاشعور أكثر على التلميذ ، نتيجة لفقدان الرسائل الايجابية للولدين المشبعة بالحب ، التي من

شأنها المساهمة في بناء جهاز ذو إمكانيات نفسية تساعد على التفاوض مع القلق الذي يجابهه الشخص في الحياة.، لاسيما في المراحل الحرجة من النمو .

ثم أن بعض الأولياء هم الذين يحفظون البرامج الدراسية و ليس أطفالهم ( لأنهم قد يعيشون قلق على مستواهم)، وهذا يشجع على نمو السلوك الاتكالي عند هؤلاء الأطفال، وعند انشغال الأولياء لا يراجعون دروسهم ، و بالتالي التكيف السلبي في المدرسة يكون نتيجة حتمية لهؤلاء التلاميذ.كما أن الأولياء يحرصون على الدروس الخصوصية - خلافاللماضي-، و بذلك قد يبعثون رسائل سلبية لأطفالهم، إذ قد يشعرونهم بأنهم غير قادرين على التعلم بمفردهم.

من المشاكل التي نلاحظها كذلك في الميدان،في مجال المساعدة النفسية : تفوق البنت في المدرسة أمر يسمح لها بالحصول على منصب شغل لاحقا، و أحيانا أفضل من أخيها ، مما يسبب للذكور داخل الأسرة معاناة نفسية، لاسيما إذا كان الأنا غير ناضج و هش لديهم، مما يوقع في صراع داخلي ، و قد يتعدى الأمر من الشعور بالنقص على المستوى الشخصي إلى نشوب خلافات و نزاعات داخل الأسرة ، دون الوعي أن أسباب ذلك عميقة.

نشير أيضا إلى أن ما تغير نوعا ما في ما يخص التصورات الاجتماعية للمساعدة النفسية ، هو أن اللجوء إلى الأخصائي النفساني حاليا أصبح نوع من الموضة ، و يمكن التحدث عن ذلك ، بعدما كان التردد إلى العيادات النفسية أمرا محاطا بالسرية ، وقد ينظر إلى الذي يطلب المساعدة النفسية على أنه مريض عقليا.

### 3- أسباب الاضطرابات:

حقيقة أن السبب الأصلي لظهور الاضطرابات ، يكمن في هشاشة الجهاز النفسي الذي قد لا يملك آليات دفاعية فعالة من شأنها حمايته ضد شدة النزوات و الرغبات ،و من المنبهات الخارجية التي قد يواجهها.، خاصة إذا توفر محيط خارجي و واقع اجتماعي معين ، يتيح الفرصة لهذه الهشاشة كي تبرز و تظهر عبر أعراض مرضية محددة دون غيرها.، فمثلا الإشكالية الثلاثية (المثلث الأسري ) تتمحور حول اختلاف الجنس و الأجيال.

هذه الإشكالية مطروحة بحدة في مجتمعنا، إذ لم نصل بعد إلى نموذج مجتمع يساعد الأفراد على تحديد هويتهم الفردية.

مؤسسات التنشئة الاجتماعية لم تعد تؤدي وظيفتها كحاوي ، لهذا يحاول الأفراد بناء - كل على حدة - مرجعيتهم من حيث الهوية كشخص مستقل ، و لا يجدون هذا الاحتواء في هذه المؤسسات ، و الدليل على ذلك أن العلاقات داخل الأسرة لم تعد كماكانت سابقا،فمثلا الطفل فيالماضي كان يعيش في أسرة ممتدة(كبيرة )مكونة من الجد و الجدة و العم ..، إذا كان الأب أو الأم أو كلاهما ، نفسيا لم يكبروا بعد أي لازالوا أطفالا ،- على مستوى عميق من الشخصية – ( الطفل لا يستطيع أن يربي طفلا )، نقصد لم ينضجوا نفسيا، في هذه الحالة كان الطفل يجد السند في أحد أفراد هذه العائلة ، الأمر الذي يحميه من فقدان التوازن النفسي، أما حاليا يعيش الطفل في أسرة نووية ، فإذا وجد نفسه مع أولياء لا يستعطون ملأه نفسيا ، فقد يكون مستقبلا عرضا للاضطرابات و الصراعات النفسية.

من أجل ذلك لابد أن يأخذ الأخصائي النفساني بعين الاعتبار ما يحدث خارج الفحص النفسي، و العمل في إطار شبكة المساعدة المتعددة الاختصاصات.كما أنه من الضروري إدماج أكثر العائلة- باعتبارها سند نفسي هام - و المحيط، إذ لا يأخذ بعين الاعتبار فقط الداخل ، إنما مساعدة الفرد في ظل المحيط و على ضوء ما يطرأ عليه من تغيرات .

**استنتاج:**

نستنبط من خلال ما تم بلورته في هذا المقال، أن على الأخصائي النفساني ، في أدائه لمهامه، كممارس و متعامل بشكل مباشر مع المشكلات النفسية الاجتماعية ، عدم التوقف على مجرد الاستماع لهذه المشاكل، بل لابد من الإصغاء الفعال ، بمعنى يحاول أن يكون المرآة التي يرى و يعي من خلالها المفحوص بوضوح العراقيل التي غالبا ما تكون نابعة من أعماق شخصيته ، متأثرا بالمنبهات الخارجية الاجتماعية و التي تؤدي إلى فقدان التكيف مع الواقع الداخلي و الخارجي.

مساعدتنا للمفحوص تكمن في عونه على إبصار و إدراك بشكل جلي و واعي المشاكل التي يواجهها بطريقة تبعده عن الأنسجة اللبيدية و العدوانية ، التي تكون وراء كل ألم نفسي.

إذن نساعد المفحوص على إقامة نظام داخلي ، على المستوى الذهني

(L'aider à mettre de l'ordre dans sa tête) ، محترمين الحركية المتجددة

و الديناميكية المستمرة، على مختلف الأصعدة و الأنساق الاجتماعية. ، ذلك لأن الفرد مزيج من المعطيات الداخلية و الخارجية ، تتفاعل في ما بينها لتوجد في العالم الفيزيقي شخصية مركبة ، لا يمكن فصل مكوناتها التي هي نتاج نفسي- اجتماعي.

## V المراجع :


1. CHAZAUD(J.),La personnalité : ses dimensions et son développement, Privat, Toulouse, 1980.
2. COURNUT (J.) et al., Psychanalyse et sexualité, Dunod, Paris, 1996.
3. FREUD (A.), Le moi et les mécanismes de défenses, P.U.F., Paris, 12ème éd, 1990.
4. FREUD (S.), L'interprétation des rêves, P.U.F., Paris, 2ème éd. 1967.
5. FREUD (S.), La technique Psychanalytique , Paris, P.U.F., 7ème ed., 1981
6. KLEIN(M.), RI IER(J.), L'amour et la haine, Payot, Paris, 1998
7. PARAT (C.J.) « Transfert et relation en analyse », in Revue Française de Psychanalyse, 1982, 46, n° 2, p. 357-365.
8. PERRON (R.), Genèse de la personne, P.U.F., Paris, 1er éd, 1985.
9. PERRON (R.), Névroses et transferts, A.P.A., UNISEF, Alger, 2001.
10. WINFRID( H.),La psychologie clinique,Bruxelles, Pierre Mardaga, 1er éd., 1987.